الفصل السادس عشر

الأمن بالإيمان والخوف بالكفران

الأمن بالإيمان والخوف بالكفران

لا أمن ولا أمان في الكون كله إلا ممن يملكهما، ومن ادعى من الخلق أنهما بيده فليوفرهما لنفسه، وليدفع عنها المرض والموت، ولكن ما هو السر وراء ميول النفوس وارتياحها واستكانتها وبرودها عند سماع كلمة الأمن؟ بينما تنعكس الحالة تمامًا في غيابها! وإذا كانت الطمأنينة والأمان غاية كل مخلوق ومبتغاه، فليس غريبًا أيها الإنسان، أن تستشعر هذا الخطر من حولك، وتستوحش مما يخبئ لك المستقبل متطلعًا إلى أي طمأنينة أبدية تشعر عادة أنها شبه مفقودة في حياتك الدنيا لاهثًا وراء أي حقيقة أو حتى سراب تعتقد أنه يوفرها لك، وحتى من لا يؤمن بالبعث تراه هو الآخر لا يقل بحثًا عنها، إن لم يكن أشد من غيره لفقدانه آلية الوصول إليها، وخوفه المبطن من مواجهة (الحقيقة) بعد الموت، وهذا هو سر قلقه من إنكار البعث، واستماتته بالجدال العقيم لإيهام نفسه بقناعته الظاهرية بذلك، وإلا لارتاح واستراح واستمتع بمعتقده الذي ارتضاه مهما كان، لكنه يصارع نفسه من الداخل، يعلم علم اليقين أنه يصادم فطرة الله التي فطر الناس عليها، هناك هاتف يهتف له من بعيد! ومن داخل نفسه! هناك همس خفي وكأنه يقول له: أنت في خطر! أدرك نفسك! فتراه من حيث لا يدري يتلمس الضمان بالأمن في كل مرحلة من حياته، فيعيش قلقًا على مستقبله؛ لأنه ببساطة لا يدري ولا يعلم الغيب، ومرتاب من المستقبل وهو يجهل ما سيحدث له في الساعة القادمة من عمره، ولا ينكر عجزه أمام تقلبات الزمان وحوادثه، وقد يصل به الحال إلى حالة (الانتحار) غرقًا في بحر المكابرة والعناد، فقد ظلم نفسه أن حملها ما لا تطيق وما لم تخلق له، ولم يقرر بعد الركون الهادئ إلى دفء الإيمان ونعمة الأمن فيه، ذلك الأمن الحقيقي الذي قرره الخالق بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] وبقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨- ٧٠].

من حق من أنعم الله عليه بهذه النعمة الإيمانية العظيمة وانشرح صدره للإيمان أن يتساءل عن تلك النزعة العنادية المهيمنة على مدعي الإلحاد لتحبسه داخل تلك الزوايا

الموحشة في الماضي والحاضر والمستقبل من هذا الوجود، وماذا أعد لما سيلاقيه أيًّا كان، ورب السماء إنه لا طاقة لهم، ولا لغيرهم في مواجهة هذه الوحشات الوجودية: الزمانية والمكانية وسر الحياة وجودًا وعدمًا ومآلات ما بعد الموت دون ملاذ آمن من الله وحده، ألستَ في حاجة عاجلة إلى توفير الحد الأدنى من الطمأنينة لكي تحيا سعيدًا في الدنيا، وتموت وأنت متفائل في الأخرى، إن الله قد وعدك ليس فقط بالحد الأعلى من الطمأنينة والأمان بل بأعلى حد منها، ومما لا يمكن تتخيله بعقلك البشري وذلك مع الإيمان به.

تلكم هي الطمأنينة المنشودة التي لا سقف لها ولا حد، ولا يجلبها للقلوب إلا الإيمان الصادق الذي يجمله هذا الخوف والتخوف عليه، وإذا جمعت بين خوف الله ورجائه فأنت تخاف وترجو قوة من لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وبالتالي نشأ هذا الخوف منه لأنك مؤمن به قطعًا، لكن البشرى العاجلة لك هي أن الذي تخافه هو وحده الذي سيوفر لك الأمن والأمان المطلوبين، وكلما ازداد خوفك ازداد قربك منه، فأنت تتقرب إليه خائفًا أو راجيًا، وهذه سمة لا تجتمع لأحد سوى الخالق، فهو الذي يستحق أن ترجوه، وتخافه وحده، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٧].

هذه مرتبة إيمانية عظيمة، وهي في متناول يدك، مفتاحها إدراكك لحقيقة حجمك في هذا الوجود، ومن أنت أمام نفسك وعقلك وتفكيرك والوجود من حولك! إدراكك حقيقة ضعفك أمام القوي وفقرك أمام الغني، وصغرك أمام الكبير، وفناءك أمام الباقي، وسواء آمنت بذلك أم لم تؤمن فأنت كذلك طالما أنك عاجز قطعًا أن تحدد زمان وجودك ومكانك في الكون، ثم لا تعلم متى، ولا تستطيع دفع الموت عنك وأنت تكرهه بلا شك، وتفر منه أشد الفرار، نعم، هذا هو أنت يا ابن آدم، فاستجب لهذا النداء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ [النساء: ١٧٠] ولا تكابر إن كنت مكابرًا، ولا تجادل إن كنت مجادلًا، فلن تصل للكمال الإنساني إلا بصلتك القوية بمن يملك صفات الكمال المطلق، هذه الصلة تعوضك عن ضعفك بأقوى بديل، فمن شدة حاجتك للقوي العزيز تصبح قويًّا، ومن حاجتك إلى الغني الحميد تكون غنيًّا، وتستعد بإيمانك بما بعد الموت لما بعد الموت، وهذه أسباب الطمأنينة والأمان: ﴿ ٱلَّذِينَ

﴿ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] كيف يصل المرء إلى هذه الطمأنينة؟ يصلها عن طريق توحيد مصدر الخوف فيمن يملك إزالة الخوف مع مصدر الرجاء فيمن يحققه، وتحييد جميع مصادر الخوف والرجاء الأخرى لضعفها أمامه، إنها الراحة عندما تأنس بالإيمان بمن يملك تحقيق الأمن المطلق لك، وتحصر ذلك فيه وحده لا شريك له سبحانه، تلكم هي حلاوة الإيمان المنشودة.

*****

سَكْرَة الشباب وصحوة الراشدين

إنه لا سواء بين خالق ومخلوق، وعلى المخلوق أن يدرك أن أهم خطوة الوصول إلى بر الأمان هي الإقرار بالعبودية المطلقة للخالق وحده، حتى لو رآها بعض المعرضين ثقيلة عليهم تبقى الخيار الأوحد للسلامة، ومن الطبيعي أن يدركها الراشدون أكثر من الشباب نظرًا لحلول الحاجة وبداية الضعف الموصل للنهاية عندهم، فترى الإنسان في ريعان شبابه يستمع إلى مثل هذه القضايا من باب الاطلاع العام والترف الفكري، بينما الكهل يتتبع تفاصيل ذلك، وكأنه يقرأ وصفة دواء اشتراه من الصيدلية لعلاج ضروري! والكيّس الفطن هو من يهيئ نفسه لذلك في وقت الرخاء، ولكي يأمن ويطمئن الطمأنينة المطلوبة، عليه بتهذيب نفسه وعسفها على أن تدرك أن جانبًا من وجوده هو أن يؤمن إيمانًا قاطعًا بأنه مخلوق ضعيف، وأن زمانه ومكانه ووجوده محدود ومؤقت جدًّا، والخطاب موجه إليك أيضًا أنت أيها القارئ الكريم، شخصيًّا، فلست مهيمنًا ولا محيطًا بهذا الكون، أنت لا تملك لنفسك نفعًا ولا ضرًّا فضلًا على ما سواها، ولست جمادًا ولا سفيهًا فاقد الأهلية، بل أنت إنسان تفكر، وبمجرد إشغال تفكيرك بهذا الأمر فأنت تدرك الأولوية الأولى والمهمة الكبرى لوجودك، إذًا أنت عاقل، وأنت كائن متميز، ومحل التكليف وأهل للمحاسبة، إنك باختصار عبد لله وحده، فكن عبدًا لله.

وتحت إطار العبودية لله تمتع بكامل الحرية تجاه المخلوقين، سيأتي لك كل ما دون ذلك بشكل طبيعي وانسيابي غير مزعج لك، فكر في كل شيء بكامل حريتك،

وتأمل كل شيء في فضاء مفتوح، فأنت محصن في أصل هذا الإيمان، لائذ بأمنه وأمانه، وسيكون تفكيرك هذا مهما بلغ اتساعه، طبيعيًّا ومألوفًا وفي إطاره الصحيح، ووضعه الطبيعي بلا خوف ولا قلق ولا وجل ولا وحشة، تصبح على صواب في أفكارك كلها؛ لأنك والحال هذه قد وصلت إلى ما وصل إليه أولئك الذين فرح النبي ﷺ بما توصلوا إليه من تفكير سليم مطلوب، لما اشتكى الصحابة ﷺ ما وجدوه في أنفسهم، مما قد تجده أنت وغيرك اليوم، لم يزد على أن قال لهم ولنا ولك وللناس أجمعين من بعدهم: «ذاك صريح الإيمان»، وسمى ما يدور بعد ذلك من شوشرة نفسية غير مؤثرة بـ(الوسوسة) التي يجب ألا تقف عندها طويلًا.

استغنِ بالله الغني الكبيرعن كل من يزعم أنه غني وهو فقير، واقفل باب الجدل والشك من لحظتك هذه، وقم وتحرك هذه اللحظة، وانجُ بنفسك أولًا وآخرًا بتحصينها فورًا بالإيمان، لا تنشغل عنها بشأن الغير، ولا يشغلنك الغير عن نفسك، فالكل سيتخلى عنك قريبًا، إننا نشهد ذلك يوميًّا، ونحن نودع أحباءنا في المقابر إلى غير رجعة إلى الدنيا مطلقًا، ندفنهم بإخلاص، ثم نتولى عنهم مدبرين بشيء من الحزن السريع، ثم لا نلبث أن ننساهم كما نسوا من كان قبلهم، وسينسانا من سيكون بعدنا إلا من يسير ذكرى أو دعاء لمن ترك وراءه صلاحًا، والذي سيبقى معنا بعد رحيلنا هو فقط ما كان مع الخالق ﷻ أولًا وآخرًا في الحياة وفي الممات وفي كل حين.

*****

معية الإيمان حصانة ذاتية

هناك حالتان من الطمأنينة، الأولى: (ذاتية) تكون من داخل النفس، ومن ثم فهي ملازمة للمرء حافظة له في أي بيئة اتجه إليها، وهي أشبه ما تكون بالمناعة الواقية من الأمراض الخارجية المهاجمة للعقل، والثانية طمأنينة (جمعية) يكتسبها الإنسان من الألفة والأنس مع من حوله من البشر فيما يعيشه ويعقله، فتراه مرتاحًا مطمئنًا في الأجواء الدينية الاجتماعية، حيث يكون الكل حوله مسلمًا ملتزمًا وكأنه (عند أستار

الكعبة مثلًا) بين الركع السجود والمآذن والأذان والصلاة والصيام والقيام والقرآن، إنه يعيش إيمانًا جماعيًّا مرتبطًا بالبيئة المحيطة به أكثر من وجوده في معتقده الذاتي داخل عقله الباطني، وهذا النوع من الإيمان الجمعي مطلوب، وهو نتيجة وجود الرفقة الصالحة، بيد أنه لا يكفي وحده، حيث يواجه المرء صعوبات خطيرة بمجرد انتقاله إلى الأجواء الأخرى منفردًا، خاصة عندما يرى الأعداد الهائلة من البشر منتشرين في حياتهم اليومية في (مدينة بومبي) - مثلًا - أو في (مطار كينيدي في نيويورك)، أو محطة (بيكادللي في لندن)، وهم جميعًا على غير دينه، فيجد نفسه وحيدًا على الدين الحق غريبًا بين الملايين على غير ملته، فتبدأ الوحشة والقلق يحاصرانه داخليًّا مع غياب الطمأنينة الجميعة المؤانسة له، ولو كانت حصانته الإيمانية قوية لما دخل في دوامة اضطهاد ذاتي من هذا النوع الناتج من البيئة الجديدة، إنها المناعة التي جعلت الأنبياء يواجهون أوضاع قومهم منفردين غير مكترثين بكثرة قومهم على الباطل.

من الطبيعي أن يواجه أبناء المسلمين الأبرياء هذه الصدمة بمجرد وصولهم إلى بلاد غير المسلمين إذا لم يتزودوا بما يحميهم من ذلك التيه، وعلاجها فقط في تقوية الطمأنينة الذاتية الداخلية وتصحيح التصورات الخاطئة عن الدين، والتأكيد على أن الدين هو بالدرجة الأولى علاقة الإنسان مع ربه قبل أن يكون معاملة بين الخلق أنفسهم، وأنه على المؤمن أن يستشعر دائمًا أنه مع ربه، وأن ربه معه حيثما حل، فالدين الحق يستقيم تمامًا في أي ظرف حتى لو لم يؤمن به أحد قط: «**يأتي النبي وليس معه أحد**»[1]، ويبقى المؤمن به مؤمنًا محمودًا متميزًا في أي بيئة كان، حتى لو أصبح على تلامس وتماس وتعايش دائم مع أعتى الكفار والجبابرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥] فلا بد - أخي المؤمن - أن تستحضر هذه الحقيقة بكل شجاعة مع الذات، فترفع رأسك معتزًّا بدينك مؤمنًا به حق الإيمان تحت أي ظرف، لا تستوحش من وجود الكافر في محيطك، فهذا لا يضرك أبدًا، أرأيت كيف أن (آسية بنت مزاحم) من سيدات نساء الجنة بإيمانها،

(١) الحديث رقم (٥٧٠٥) عند البخاري ورقم (٢٢٠) عند مسلم عن ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**عرضت عليّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد**».

وليست مجرد مرافقة لفرعون فحسب، بل هي زوجته الملاصقة له، التي تنام معه في فراش واحد؛ إنه أعتى جبار وأكفر كافر (فرعون)! وكذا الحال مع نوح ولوط عليهما السلام، كيف كانا يرقدان في بيت واحد، بل في مرقد واحد مع امرأتين كافرتين: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [التحريم: ١٠].

سبحان الله ما أروع هذا الدين المستقل بذاته، وما أصدقه مع النفوس والوجود، ما أعدله وأنصفه وأحسنه! انظر كيف يلقي أمامك ومن حولك أطواق النجاة في كل شيء، فإذا تبين لك كل هذا، فانعم بإيمانك هذا وقربك من ربك، ودع عنك القلق والوحشة والتشكيك، احزم أمرك من لحظتك هذه، واستعد به لما هو أولى من العبث واللهو والوسوسة والجدل العقيم، وأي حماقة يرتكبها الإنسان عندما يتردد، ويسوّف مؤجلًا قراره الإيماني المحض والوقت يمضي والموت يداهمه كل لحظة! وإذا كان هذا ما يمليه على الإنسان العقل السليم والمنطق الصحيح وفق ما سبق إيضاحه، فكيف إذا علمنا أن الأصل هو أنك يا ابن آدم، لم توجد ولم تخلق في هذا الوجود إلا لعبادة الله الذي يخلق ما يشاء ويختار ما كان لك ولا لغيرك الخيرة في ذلك: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وهنا يجب أن ننتهي، حيث أمرنا ربنا أن ننتهي عنده، فيصبح لزامًا علينا وعليك، أن نطوي صفحات الوسوسة والقلق - لمن كان منا كذلك - وأن ننعم بهذا الإيمان الحافظ الذي نحمله بفضل الله علينا، بهذا الإيمان لن يضرنا أحد، نستغني بالغني عن كل فقير بمن فيهم أنا وأنت، ثم نستغني عمن حولنا من البشر، عليك أن تأنس بهذا الحق حتى لو كنت وحدك عليه، وألا تكترث بما قد يمليه عليك الخلق مما يختصمون فيه، تذكر أنك قد خلقت في بطن أمك وحيدًا، وخرجت إلى الدنيا وحيدًا، وستخرج منها وحيدًا، وستواجه مصيرك فيما بعد الموت وحيدًا، وسيصبح من كانوا حولك في الدنيا عبئًا عليك في المحاسبة عن الحقوق بعد الموت من ذرية أو رعية أو والد أو ولد.

إذًا، فلتكن طمأنينتك ذاتية نابعة من إيمانك المطلق بالله من داخل وجدانك حتى تصاحبك هذه الحصانة في كل تقلباتك وتنقلاتك، وتحميك من المزعجات الفكرية حيثما حللت أو ارتحلت، وتحصنك لملازمتها لك أينما وجدت لا يضرك بعد ذلك من ضل

إذا اهتديت، حتى لو ضل الناس جميعًا، ولا تستوحش بحال من حولك من الناس، لن تكون في خطر بحول الله ما دامت بواعث الطمأنينة والسعادة تتدفق من داخلك، أكثر من كونها فتاتًا متناثرًا تجمعه مما يحيط بك من بيئة متقلبة إن صلحت صلح إيمانك معها، وإن فسدت فسد معها، ومهما كان ارتباطك الاجتماعي بمن حولك، تبقى كيانًا مستقلًّا بذاته، لك شخصيتك وقرارك في النهاية، ومن المؤكد أنك لن تقتحم النار لمجرد أنك رأيت من يقتحمونها أمامك، مدعيًا الأنس بهم في كل حال، بل ستحرص على معرفة أسباب اقتحامهم لها كي تتجنبها! حتى لو هربت منفردًا عن الخطر؛ لأنك تدرك الهلاك المتحقق من جراء ذلك، ولن تحتج بالكثرة ولا بالقدر! وقد رأينا من يتشبث بذلك أحيانًا، ويتذرع به وقت الرخاء، ويهرب منه وقت الشدة: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٤- ١٥].

فقدان التوازن الفكري بين الذات والبيئة المحيطة، واهتزاز الثقة بالنفس واقتناعها وتأثرها بما يدور حولها، هو الذي يدفع بعض الناس إلى أن يسائل نفسه سرًّا: «كيف يكون هؤلاء على كثرة عددهم على الباطل، وأنا وحدي منفردًا أو مع أقلية مثلي على حق؟»، ليت السائل يتذكر أن الكثرة لم تكن يومًا معيارًا لحق أو لباطل، ولو كانت الأكثرية هي التي دائمًا على الحق لما تطلب الأمر وجود رسول ولا نبي ولا مصلح؛ لأن هؤلاء يأتون عادة بمفردهم يحملون رسالات الله لمواجهة المجتمع الغارق بأكثريته، إن لم يكن كله في الضلال، فكل مصلح بين مفسدين هو أقلية صلاح بين أكثرية فساد، وجميع المصلحين عبر التاريخ كانوا كذلك.

ومع الطموح الجاد لنيل أعلى درجات الإيمان الممكنة، إلا أنه لا بأس على المرء أن يأنس بصحبة المؤمنين الذين يعينونه على الحق، ويستأنس بهم، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٣] وقوله: ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣] وهذه مرتبة حسنة، ولكن المرتبة الأعلى والأسمى منها حال الغرباء: «**طوبى للغرباء**»[1]، الذين يصلحون إذا فسد الناس كما جاء في الحديث،

(١) الحديث رقم (٣٩٢١) من صحيح الجامع للألباني عن عبدالله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «**طوبى للغرباءِ أناسٌ صالِحونَ في أناسٍ سوءٍ كثيرٍ مَنْ يَعصيهم أكثرُ ممَّنْ يُطيعُهُمْ**».

وكذا الحال عندما لا يستجيب الناس لنبيهم الذي يأتيهم بالحق: «**يأتي النبي وليس معه أحد**»[1]، ولهذا وصف الله إبراهيم عليه السلام بالأمة؛ لإيمانه وحده: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠].

هذا هو الحصن الحصين والحبل المتين وحق اليقين في الطمأنينة المنشودة، والثقة المطلقة التي لا تبقي مساحة لوجود أي نوع من الوحشة أو القلق من كثرة الباطل حولنا، فاجعل همتك دائمًا التطلع نحو هذه المراتب العليا من الإيمان الذي سيلازمك حافظًا لك أينما ذهبت في حياتك وحتى بعد مماتك، ولتكن شجاعًا في مواجهة أي شبهة من الوسواس بعد ذلك، استكثر بالله عن كل مخلوق قليل أو كثير، وأنس به من كل رعب ووحشة، فالله ربنا وربك، وهو أرحم بك من نفسك ووالديك والناس أجمعين، وهو أعلم ويعلم ما في نفسك، ولا تعلم ما في نفسه، وهو الذي ستأنس بمعيته لك في الدنيا والبرزخ والآخرة، وبعد هذا يبقى الأمر أمرك، والشأن شأنك، والحياة حياتك، والممات مماتك، لتختار طريقك إلى عالم المستقبل.

انهض من لحظتك هذه، واصعد سلم الأمان، واحذر كل الحذر من أن تجد نفسك في لحظة من مسيرك الغافل في الدنيا في موقف الحسرة الكبرى الذي تقول فيه: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ [الزمر: ٥٦] ابدأ بالإيمان فأصلحه أولًا، ثم انتقل منه إلى العبادات والمعاملات مجتهدًا بقدر الاستطاعة، فالأعمار تنصرم بسرعة فائقة، ولا وقت ولا مكان لضياع فرصة العمر القصير بهذه الطريقة الجدلية العقيمة الموحشة، قريبًا ستنقطع صِلاتك تمامًا بكل ما حولك، وستترك هؤلاء الذين يؤثرون فيك وتتأثر بهم فكريًّا فوق الأرض، وسيتركونك وراءهم، وسينصرفون عنك بعد أن يرموسك رمسًا، ويدكوا عليك التراب دكًّا، إن أولئك الذين أشغلوك في حياتك بالجدل حول وجود الله ومبدأ الكون ومنتهاه قد وضعوك بعد موتك في مستوى دون أقدامهم بأمتار تواجه مصيرك الذي كنت تجادل فيه في الدنيا، لقد كان آخر عهدك بهم وبكتبهم وبفلسفتهم وبهرطقتهم وجدلهم عن الوجود، وكنت شريكًا معهم في الحوار يوم أن كنت حيًّا تمشي معهم في الأسواق، وها أنت تغادرهم، وتغادر

(١) الحديث متفق عليه عن ابْن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما.

كل الحياة وحيدًا، لقد انعدمت تلك الشراكة الفكرية مع غيرك في اللحظة التي كانت آخر عهدك بالصحة التي كنت تنعم بها قبل لحظة الموت لاهيًا بالجدل عن شكر المنعم، حتى قصرت عن شكره وقت الشكر، ففات الأمر عليك، فتوجه إلى الله دائمًا ما دمت حيًّا فهو وحده الباقي معك هنا وهناك، وقد كان معك من قبل، وهو معك من بعد، حتى وإن كنت غافلًا! فمتى تصحو، وترعوي أيها الغافل؟

*****

نقترب من آجالنا كل ثانية

هل نحن حقًّا مؤمنون بكل يقين أن مآلنا الى الموت بلا استثناء؟ وأن كل ثانية تمضي في هذا الوجود لا رجعة لها البتة وكل فائت زمني لا يعوض، وأن أمامنا نقطة الميعاد المحددة مسبقًا بكل دقة زمانية ومكانية، تدفعنا إليها كل ثانية تمر من أعمارنا المتصرمة، فإذا كان الأمر كذلك فأي قلب لا يرتجف وأي جلد لا يقشعر خوفًا من أن يكون عرضة لهذه الخاتمة المتبوعة بهذا الوعيد إذا لم يؤمن بيوم المعاد؟: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩- ١٠٠] لقد اعتدنا على أن المريض قد يشفى بعد مرضه، والكسير يجبر بعد كسره، والخائف يأمن بعد خوفه، لكننا تأكدنا من جهة أخرى أن الميت لا يرجع بعد موته إلى الدنيا، يعني أن الابتلاء والامتحان في هذا الوجود المؤقت هو في أقصى درجات الخطورة، حيث لا مجال لاستدراك فائته، فهو ابتلاء حاسم ولمرة واحدة فقط وفي اتجاه واحد، وأي مجازفة أخطر من غفلة الإنسان في تفويت أمر لا يمكن استدراكه وعليه تبنى جميع تلك التبعات الدنيوية والأخروية؟

لقد اقترب الأجل وأنت لا تزال في فسحة من أمرك لمجرد أنك حي تتحرك وتقرأ هذا الكتاب في هذه اللحظة، فاعلم أنها فسحة ثمينة من عمرك ولو لم يبقَ منها إلا دقائق معدودة تستدرك خلالها كل ما فات في إيمان صادق وتوبة نصوح في لحظات، تجب كل شيء قبلها، وأنت أحيانًا في هذه الدنيا تتعامل مع هذا الأمر العظيم بشيء

من البرود الغريب، والتسويف المريب، وكأنك أمام خلاف جانبي في وجهات نظر بين أطراف مغمورة من الناس ولأمر هامشي أيضًا في حياتك لا يستوجب التوقف والاهتمام كل الاهتمام، عجبي أنك لا تحسم أمرك وأنت لا تملك مخرجًا ولا ملجأ ولا مفرًّا من تلك الأهوال المقبلة، أنت في جميع أحوالك محاصر بين أسوار ملك الله، وتحت هيمنته الكاملة، وعقارب الزمن تمضي عليك دون رجعة لثانية واحدة منها للوراء، وأنت لا خيار لك في مستقبل سيكون موحشًا مقلقًا عنيفًا مخيفًا، إلا أن تختار طريق النجاة بالإيمان وطلب الأمان ممن يملك قدر كل شيء ونواميسه كلها.

ولكي تنجو من الأخطار المستقبلية المهلكة التي تعلمها، والتي لا تعلمها، لا بد أن يحل في قلبك اليقين الراسخ فطريًّا محل الوسوسة والشكوك العابرة، لا تترك هذا الأمر معلقًا ولا مؤجلًا، فهو أهم من كل مهم، وأولى من كل أولوية، فاصبر نفسك على الإيمان، واجعل تذكيرها فيه قبل حرصك على الطعام والشراب والنوم والكساء، كل ذلك دفعة إيمانية تضاف إلى الأساس الفطري الذي سبق الحديث عنه ولا عبرة بما قد يتراءى للبعض أن الوسوسة عنده قد وصلت إلى درجة الخطر، ولو تأملها قليلًا لوجدها قد بنيت على أساس هزيل ضعيف من الأفكار والتصورات الخاطئة، ويتخيل بعض الحريصين أن الأمر قد وصل إلى مرحلة الانسداد الفكري المستعصي على النقاش المنطقي، فبدأ يتوهم بوجود (غصة) يقين تحشرج في صدره، وتجعله يستوحش من حقيقة هذا الوحي الذي جاء أصلًا لشفاء الصدور مما فيها من نحو ذلك، وهدى ورحمة للعالمين أجمعين.

*****

درء التعارض بين الاختيار والأقدار

إن من يحتجون على الضلالة بالقدر، قد ضلوا ضلالًا مبينًا، فهم انتقائيون لا يحتجون بالقدر في تحقيق شهواتهم ورغباتهم، تراهم يسعون إليها، ويبذلون كل سبب لتحقيقها، إنك - أيها القارئ الكريم - لتدرك كأي إنسان سوي أنك حر تختار وتقرر

وتقبل وترفض، تتلمس طريقك في هذه الحياة متسللًا بين خير تبحث عنه وشر تتحاشاه، لم تترك خيرًا ترى أنه غير مقدر لك، ولم تقتحم شرًّا ترى أنه مكتوب عليك، بل أنت حر ليس عليك يد مجبِرة ولا قوة مكرِهة لك، لقد أودع الخالق فيك ملكة اختيار طريق السلامة فطريًّا فأنت تتلمسها طوال حياتك، ترى الخطر، فتقرر الانصراف عنه، وترى الأمن فتلوذ به، لم توجه يومًا مسدسًا إلى رأسك، فتطلق رصاصة وأنت مطمئن أنه إذ لم يكن ثمة قدر بأنها تقتلك فلن تقتلك! بل أراك وبكل حيطة وحذر تحرص كل الحرص على الابتعاد عن السلاح كما يحرص صانعو السلاح أنفسهم ألا يسلموه إلا لمن يثقون به، ومع ذلك صنعوا له مفتاح أمان يمنع نسيان قفله تفاديًا لخطره حتى مع من يثقون بكفاءته، ولا تدخل على الأسد في قفصه وأنت مطمئن أنه لن يفترسك إذا ما قدر الله ذلك! أراك تهرب وتحتاط وتختار السلامة كلها، في كل لحظة خطر أراك تستدني احتياطاتك الفطرية تتبعًا للسلامة ولا علاقة لذلك بالجبر والمنطق والفلسفة، وفي تلك اللحظات تتلاشى كل عبارات الترف الجدلي التي تبتذلها في أثناء استرخائك، تذكر أيضًا اضطراب رجليك خوفًا وأنت تقود سيارتك عندما تكون أمام خطر مفاجئ من خلل فيها أو من سيارة أخرى أو من حيوان عابر للطريق! هل سيكون للاحتجاج بالقدر أي فرصة زمانية أو منطقية في لحظات حاسمة تلملم فيها أطرافك ملتصقًا بسيارتك لعلك تتجنب أكبر قدر ممكن من الخطر ناسيًا كل ما يتعلق بالقدر قدرًا أو جبرًا!

هذه الاحتياطات كلها اختيارات ذاتية حقيقة لا يرد معها الاحتجاج بالقدر مطلقًا، ولا تكاد تجد أمة من الأمم إلا ويقر عقلاؤها بذلك، فقد أوضح الفيلسوف الألماني (كانت) أنه لا تعارض بين الحرية في الاختيار والضرورة المادية المرتبطة بالأفعال[1]، وذهب (أوغسطين) إلى أبعد من ذلك، فقال: «إن نظام الحياة البشرية لله يفسد إذا فقدت الحرية»[2]، ونحن بلا شك نملك حرية نختار فيها رغباتنا، ونتضايق من العوائق التي نحرص على تفاديها لتحقيق رغباتنا، وهي الحرية كما عرفها (رسل)[3]، إننا نجد في موروثنا الديني ما يغنينا عن أقول البشر؛ لأننا مع اختيارنا نعتقد جازمين

(١) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٧٦.
(٢) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٨٥.
(٣) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٨٤.

أن هداية الله لنا فضل منه ونعمة علينا، فلولاه سبحانه ما كنا أصلًا في الوجود، ولما كنا كذلك في نعمة الهداية.

وأما وقوع الضلالة لمن ضل فليس إجبارًا كما يفهم بعض الناس هذه الآية: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: ٩٣] أو آية: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٦]، أو آية: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦] وإنما إخبار بموجب علمه المسبق باختيار الإنسان لطريق الضلال، بعد أن بين الله له طريق الهداية، وجعل في مقدوره الكامل أن يسلك طريق النجاة المبين له، وهذا العلم المسبق من الله ﷻ هو ما أشارت إليه الآية الآخيرة بأن الله: ﴿أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦] وهذا هو الفهم الصحيح لآيات الهداية في القرآن؛ لأن الله قد بين ذلك في هذه الآية المحكمة التي تدحض كل حجة لمدعي الجبرية في الهداية أو الضلال، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥] وقال تعالى مخبرًا أن الإنسان هو الذي يختار بنفسه إما الضلالة: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ﴾ [مريم: ٧٥] أو الهدى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧] وهذا ما جعل سيد الموحدين إبراهيم عليه السلام ينسب الهداية لله، ولا ينسب إليه ضلال الضالين، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧].

إن النفوس الصادقة مع ذاتها المنسجمة مع فكرها، المتوازنة نفسيًّا، تدرك جيدًا أن الاحتجاج بالقدر في تجشم الأخطار غير واقعي ولا وجود له في عالم الإنسان الطبيعي، وأن هناك فرقًا بين خطأ الاحتجاج على الخطيئة بالقدر، والإيمان الواجب بالقدر خيره وشره، فلو أجريت على نفسك بعض الافتراضات لوجدتها تتلمس طريق النجاة ومواضع السلامة مختارة بكل حرية، بالدرجة نفسها التي تهرب من خلالها عن مواقع الضرر والهلاك، أنت تختار فعلًا وبكامل الحرية، فلا تحتج بالقدر ولا تنكره أيضًا، في الوجود مواقف يجب اتخاذها في لحظات دون تسويف أو تردد، عندما يهجم عليك أسد كاسر، فلا وقت للفلسفة والاحتجاج بالقدر واستدناء عبارات الفلسفة ومقدمات

المنطق! بل عليك أن تتصرف فطريًّا وفي لحظات محترزًا من الخطر، وإلا دفعت ثمن ذلك التسويف والتردد، ولن تحتج حينها بما كتب وقدر لك، وتزعم أنه لا داعي للهروب الذي لا جدوى منه أمام المكتوب! لكن الأمر في اقتناع الجميع مختلف جدًّا، وبإجماع العقلاء أن الخطر مرهوب، والأمن مرغوب، والكل تحت مشيئة وإرادة علام الغيوب.

ولتبسيط هذه المسألة لنأخذ هذه الفرضية التي أرجو أن تعيش معي مراحلها بانسجام واسترخاء تام: تخيل أنك منقطع في صحراء لا تحس فيها من أحد ولا تسمع لهم ركزًا، وأدركك الموت جوعًا وعطشًا، وأصبحت على يقين من موت محقق إلا أن يتم إنقاذك فورًا، فجاءتك حافلتان متشابهتان ولا فوارق بينهما: إحداهما من المؤكد أنها ستنقلك إلى أفضل منتجع يمكن أن تتخيله على وجه الأرض، والأخرى من المؤكد أنها ستنقلك إلى أسوأ سجن يمكن أن تتخيله على وجه الأرض، فيه كل ما يخطر في بالك من وسائل التعذيب والأذى، وأصبحت أمام خيار الموت المؤكد بالبقاء أو الركوب في إحدى الحافلتين، وهل يشك عاقل في رغبتك في اختيار الحافلة الموصلة للمنتجع، وستهرب من الأخرى الموصلة للسجن، ولكن لم يخبرك أحد بوجهة كل حافلة، ولم يحددهما لك، وترك الأمر لك كي تختار، فالتبس الأمر عليك أيهما الآمنة للمنتجع، وأيهما الخطيرة للسجن، لكنك لا تستطيع أن تميز بينهما؛ لأن الاحتمالين قد تساويا تمامًا، ولا تملك أي قرينة ترجيح، ستتوقف حائرًا لعلك تكتشف أيهما الآمنة، قطعًا لن تركب في الأقرب منهما محتجًا بأن الأمر مقدر ولا خيار لك فيه، وستبقى في حيرة اختيار عصيبة، يكاد ينفطر عقلك من شدة التفكير والحرص على الوصول إلى نتيجة مرجحة نحو الحافلة الآمنة؛ لأنه لا خيار لك غير ذلك، وبينما أنت على هذا الحال، جاءك خبر مفاده أن الحافلة الأولى قد ترجح أنها هي المتجهة إلى المنتجع بنسبة ٥١٪ فقط ونسبة ذهابها للسجن لا يتجاوز ٤٩٪ بينما بقيت نسبة الحافلة الأخرى على الخمسين في المئة بين الاحتمالين دون ترجيح، وعليك الاختيار الآن: إما الاحتجاج بالقدر واختيار أي حافلة منهما عشوائيًّا، أو اختيار الحافلة الأولى على الرغم من أن فرصة السلامة لا تتجاوز واحدًا في المئة، أو اختيار الحافلة الثانية التي لا ترجيح في تحديد وجهتها مطلقًا، قل بربك: أيهما ستختار؟ قطعًا خيارك واضح ووحيد، ولن تتعداه إلى غيره تحت

أي مبرر أنها الحافلة الأولى فقط؛ لوجود هامش أمل يسير. ولكنك قطعًا ستكون أكثر طمأنينة وإصرارًا لاختيارها لو ارتفعت نسبة ترجيح توجهها نحو المنتجع إلى ٦٠٪، حتى مع عدم ضمان سلامتك بالحافلة والطريق، وحينها لن تفكر في أخطار الطريق الجانبية وأنت في هذه الحافلة؛ لأنه ترجح لديك جهة الخطر أكثر مع الحافلة الثانية، فابتعدت عنها، وستتحمل مغامرة الخطر بنسبة ٤٠٪ في الحافلة الأولى لوجود أمل السلامة، ستتحمل أيضًا كل ما قد يصادفك في الطريق من عقبات مهما كانت، فهي أقل ضررًا مما هربت عنه أصلًا، وأخيرًا لو كان العرض أن خبر توجه الحافلة الأولى نحو المنتجع الآمن صحيح ومضمون بنسبة ١٠٠٪ وأنها ستوصلك وبضمان وأمن وسلامة مطلقة إلى ما هو أفضل من كل منتجع تتخيله، وما لا يخطر ببالك من اليقين والأمان والسلامة الدائمة ليس في منتجع ترفيهي زائل في الدنيا بل في جنة باقية دائمة في الآخرة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧] يقابلها على الجانب الآخر الحافلة الثانية التي أصبحت هي الأخرى مؤكدة بنسبة ١٠٠٪ أنها ستوصل ليس إلى السجن والأذى الدنيوي المؤقت فحسب، بل إلى مكان سحيق، لا بل إلى عذاب مقيم في نار جهنم: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧] أفيبقى عند من لديه ذرة من عقل أي غموض أو لبس في حرية الاختيار لطريق السلامة الذي هو الصراط المستقيم؟ أو يقدح في ذهن عاقل ذريعة للاحتجاج بالقدر لما هو في متناولنا جميعًا من حرية الاختيار؟ سيبقى التحدي الأكبر لمن لا يريد اختيار طريق السلامة هذا، مترددًا أو مشككًا أو مكذبًا، إلى أين سيهرب وإلى من سيلجأ مما سيواجهه من أهوال قادمة أولها الموت الذي يفر منه في حياته؟

فإذا كان الأمر كذلك – وهو كذلك بلا شك ولا ريب – أليس من الجنون في حق نفسك إفناء هذا العمر القصير متنقلًا بين الشكوك من جهة والاحتجاج بالقدر والجبر من جهة أخرى، حتى تفوت على نفسك فرصة قرار السلامة الذي هداك إليه خالقك ومنحك قدرة التمييز بين الطريقين؟: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] ورب السماء والأرض إن العاقل ليحار فعلًا كيف يهيمن اللبس والشك على الإنسان السوي، فيتيه في فكره وتفكيره، ويحيا حياة شقية كلها هم ونكد وضنك قبل الموت، وهو لا يجد له

بديلًا عن الإيمان بالله ملاذًا وأمانًا من أهوال سيواجهها لا محالة، لقد جاءنا الخبر من الله المالك لكل شيء والقادر على كل شيء ومن أصدق من الله قيلًا؟ ومن لا يعجبه خبر الله عن ملكه، فليخبرنا عن مهربه ومفرّه من (مملكة) الرحمن التي أنا وأنت جزء منها عبيد له شئنا أم أبينا، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

هنا نصطدم بالنهاية الحاسمة للجدل الطويل وضرب الأمثلة، فندرك أنه ليس لك يا ابن آدم، خيار سوى اختيار الإيمان، فالزمه واصبر نفسك عليه، واعلم أن الأمر أمامك آتٍ، والمصير معلوم، إما طاعة فنجاة، وهذا من فضل الله علينا وعليك أن هيأ لك اختيار طريق النجاة، أو معصية فهلاك، وهذا باختيارك أنت ومن نفسك خلاف ما أمرك به الله، إن طاعة الله هي خيارك الوحيد ولا خيار لك سواه، فكن عبدًا له بعبودية لا نظير لها في الوجود، فهي وحدها طريق السلامة الوحيد لك ولوالدك وولدك وذريتك من بعدك، وقد جاء التنبيه والبيان واضحًا والحكم في كلا الحالين مقدمًا معلومًا بخبر قاله أصدق القائلين: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٧] فهل من مدكر؟

*****

الاستسلام والتسليم

الاستسلام للمخلوق يكون عادة محصورًا بما تم بالضعف أو بالضغط عليه إكراهًا، أما الاستسلام للخالق فهو شامل لكل شيء في السر والعلن طواعية وبطيب نفس، وكل استسلام لمخلوق يُعدّ ضعفًا، أما الاستسلام لله فهو قوة وشجاعة وحسم، فبادر إلى ذلك قبل أن يطرق الموت بابك، وعليك أن تلوذ بالله وحده لكي تحيا حياة سعيدة على أن تبقي حالة الطوارئ في المجاهدة والدفاع عن الإيمان معلنة تردد دائمًا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨] مهما حدث معك فإن مآلك في نهاية المطاف إلى هذا الاستسلام والتسليم للقوي العزيز، إنه موقف فطري متوازن يسمو بالإنسان إلى أعلى مراتب الوجود البشري، ويهيئه

لنيل الجزاء الأوفى في الآخرة، وهذا الاستسلام لله وحده هو القوة بعينها، وهو القرار الشجاع الذي يتخذه صاحب العقل السليم الذي أدرك حقيقة ما حوله من الوجود في الدنيا القصيرة، فتكيف معها بالطريقة الصحيحة التي تضمن له السلامة دائمًا وفق الفطرة السليمة، واتعظ بما حدث لمن سبقوه ممن أضاعوا أعمارهم دون جدوى، فنجا بنفسه من مهالكهم، ووجد أن الرسل والملائكة وهم أعلى مقامًا من غيرهم، لم يستنكفوا أن يكونوا عبادًا لله، يعظمونه منكسرين بين يديه، رغبًا ورهبًا: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٧٢] وعلم أن العلاقة مع الخالق هي علاقة العبد بسيده فقط، وليست كأي علاقة متقاربة أو متساوية أو متكافئة مع مخلوق آخر، أدرك أنه لا يؤمن حتى: «**يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**»(١)، أطاع لما سمع هذه اليمين المزلزلة من الله تعالى على التسليم مقسمًا بذاته ﷻ قائلًا: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥] ثم وجد في هذا الموقف الفطري راحة البال وسكون النفس وحلاوة الإيمان التي كنا نتلمسها طوال هذه الرحلة الفكرية، فذاقها، وتحققت له الطمأنينة في دنياه، وتاقت نفسه في انتظار النجاة والفوز والسلامة في أخراه، وبعد هذه المكاسب المتدفقة عزًّا وطمأنينة وسعادة بهذا التوازن الوجودي، كيف يكون التسليم والاستسلام لله ضعفًا؟ إني لأجد الراحة كل الراحة في أن أسلم وجهي وحياتي ومماتي وكل شأني لمن خلقني، وأوجدني، ورزقني وبيده حياتي وموتي وبعثي ونجاتي يوم القيامة.

تعالَ معي هنا إلى حديقة اليقين نسعد بهذا الإيمان، ولا نكترث بما قد يمر بنا من (وساوس عابرة) أو حيرة في أمر ننتظر معه اليقين، فهذا أمر طبيعي لأنك مؤمن بالغيب أصلًا والأمر القادم أكبر من أن تتهاون في الاستعداد له، تأكد أنك تملك الأساس الفطري الذي تبني عليه كل ما تريده من إيمان منقذ لك من أهوال المستقبل،

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الإيمان عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**».

فالأمر من الوضوح والتيسير أن لا أحد يحول بينك وبين أن تسعى جاهدًا لتطمئن على إيمانك الذي تخاف عليه من التآكل، سواء كنت مستفسرًا أو متسائلًا، محاورًا أو مجادلًا بالتي هي أحسن، ولكن عليك أن تنعم بهذه الطمأنينة المتجذره في قلبك، التي منها تنطلق إلى ما بعدها، ثم ضع نصب عينيك أن إمام المؤمنين جميعًا، النبي العظيم ﷺ، وهو الذي يتلقى الوحي مباشرة من الله كان في حاجة إلى تذكير وتثبيت دائم، ثم يخاطبه الله بعد ذلك بقوله: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩] وبقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤] ولأن الأمر كله طبيعي ومألوف، كانت فرحة النبي ﷺ وحمده لله والثناء عليه لما ذكر له الصحابة ﷺ ورود تلك التساؤلات التي قد تطرأ على كل إنسان فتقلقه؛ لأنه من حبه الصادق لله يخشى أن يكون وحيدًا في مواجهتها، والأمر ليس كذلك مطلقًا، كان رد فعل النبي ﷺ عندما صارحه أصحابه بما تظن أنك وحدك تواجهه، ما زاد على أن قال لهم: «**أوجدتموه؟! ذلك صريح الايمان**»[(١)]، وفي حديث آخر قال لهم: «**الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة**»[(٢)]، لا أدري ماذا يتوقع المؤمن أن نقول له في هذا الأمر أكثر وأوجز وأطيب من هذا الموقف النبوي النبيل لطمأنة المؤمن بإيمانه الذي يحمله على الرغم من تلك الأعاصير الفكرية المحدقة به من كل حدب وصوب؟، فكان هذا إيمانه وإيمانهم الحق الذي شهد لهم به الله بقوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

---

(١) الحديث رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**جاء أناس من أصحاب رسول الله إلى النبي فقالوا: يا رسول الله إنا نجد الشيء في أنفسنا ليتعاظم عند أحدنا أن نتكلم به قال: وقد وجدتموه. قالوا: نعم، قال: ذلك صريح الإيمان**».

(٢) الحديث رقم (٥١١٢) في سنن أبي داود ورواه أحمد بن حنبل في مسنده وصححه الألباني وكلاهما عن عبدالله بن عباس ﷺ أنه جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله إنَّ أحدَنا يجدُ في نفسِه يعرضُ بالشيء لأن يكونُ حممةٌ أحبَّ إليه من أن يتكلَّم به فقال: «**اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ الحمدُ للهِ الذي ردَّ كيدَه إلى الوسوسةِ**».

لا يستطيع الإنسان التنصل من غريزة حب الاستطلاع حول كل ما يجهله من الوجود واستشراف للمستقبل والتعطش للغيب، وجميع الناس يفكرون، ويتساءلون كما تفكر، وتتساءل بدرجات متفاوتة كتفاوت عقولهم، والجميع ماضٍ في الطريق نفسه الذي أنت تسلكه اليوم، والكل فقير إلى الله في كل شيء، قد تنظر إلى بعض ممن حولك وخاصة العلماء والأعيان والأكابر، فتعتقد أنهم أرقى وأسمى منك إيمانًا، وأنهم وحدهم من أهل اليقين المطلق وأنت المحروم منه، ولا تدري لربما كانوا جميعًا أشد قلقًا من نحو ما قد يعترضك أحيانًا، وأحوج منك إلى ما نتذاكره الآن معك، لكنهم صمتوا عن البوح بأسرار هذا العراك الداخلي كما تصمت أنت، وكلكم يفعل ذلك إقرارًا ضمنيًّا منكم بوجود جذوة الإيمان الصادق، وتأدبًا مع الله واقتداء بالصحابة الذين قالوا: (نتعاظم أن نتكلم به)، ولولا وجود الخالق لما وجدت رعشة الخوف المكبوتة عند المخلوق بمجرد الاقتراب من أمر الخالق ﷻ؛ لأن الجميع بفضل الله يملكون أساس الإيمان الفطري الذي يبقى صمام أمن يحفظ الأمر من الانفلات.

كلنا نحتاج إلى مزيد من الطمأنينة وتثبيت الإيمان، وهذا هو علم اليقين، فلا تكترث بما قد يقال لك تصنعًا من بعض المتظاهرين بالطهرية والنقاء، ولا يعلم ما في القلوب إلا علام الغيوب، وتأكد أن الله الذي أوجد هذا الكون بأبعاده الممتدة، له من الصفات التي تفوق كل خيال، وفي كمال فوق كل كمال، لغني عن أن يخلق مخلوقًا ضعيفًا مثلي ومثلك، ثم يتركه في حيرة من أمره على مستقبله، فيغرق في الشكوك والأوهام، فمن رحمته سبحانه أنه يرعى عبده، ويحيطه بلطفه حتى بعد إرسال الرسل إليه، لتعلم أن كل حياتك في سعة ما لم تقترب من الظلم الأكبر الذي يجب أن تتجنبه ومقدماته: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] فقد خصه الله دون غيره بعقاب أليم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

إنه محض الإيمان الذي لا يرد معه يأس ولا قنوط ولا إحباط، وكل ما تحتاج إليه للشفاء من هذه المنغصات الروحية والفكرية هو صدق عبوديتك لله تعالى، ومجاهدة نفسك مؤمنًا صادقًا تتلمس طريق النجاة من فتنتي الشكوك والوساوس، وتتحرى منافذ الطمأنينة والسلامة، وهذا جهاد بحد ذاته مرصود لك الأجر فيه مقابل هذه

المجاهدة، وأبشر بعد تحقيق هذه العبودية بأن الذي خلقك، وخلق عقلك الذي تفكر به هكذا، يراك ويسمعك، وهو معك في كل سجالاتك الداخلية، ولا يخفى عليه من أمرك وسرك شيء، وأنه سيهديك بصدقك هذا وجهادك إلى سواء السبيل الذي تبحث عنه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] وسيكون معك دائمًا وأبدًا، وكيف يخاف من كان الله معه، ويقول له: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد: ٣٥].

*****

الفرار إلى الله!

إنه الفرار من الله إلى الله! ومن الطبيعي أن نسعى جاهدين لتلمس سبيل الأمان في حياتنا كلها، نحن هنا لا نستخدم منهجية (الصدمة والترويع) مع النفس في تكييف حالك في الوجود ومآلاتك بعده لتسلك طريق الخلاص، بقدر ما نذكرك بأن الوحشة كل الوحشة إنما هي مع الكفر والإلحاد والإعراض عن ذكر الخالق الذي يملك كل شيء في هذا الوجود، وبيده كل شيء، ومن المنطقي جدًّا أن يكون الملاذ الآمن والأمن كل الأمن إنما هو مع الإيمان به سبحانه واللجوء إليه، والتوكل عليه وحسن الظن به؛ لأنه بصفات كمالية لا نظير لها، ويستحق بها كل السمع والطاعة، فهو البر الرحيم، الذي أنزل علينا هذا الدين منه رحمة للعالمين، ورحمته قد سبقت غضبه، وهو الرحمن الذي يرحم الراحمين، وقدم لنا في نصوص الوحي وتفاصيل الدين تذكيرًا وموعظة وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين، وكل ذلك فضل منه يطمئن المؤمن، ويفرحه، ويؤنسه: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] فلنفرح بأننا عبيد له، ولنشكر نعمًا منه لا تعد ولا تحصى، والله إننا لم نشكر الله على نعمه حق الشكر، ولم نقدره حق القدر، ولا أمان لنا كأمان يأتينا ممن يملك كل شيء، ولا ملاذ تتوافر في السلامة مثل ملاذ عند الله ﷻ.

تأمل موقفك عندما تتعرض لخطر محدق، ثم يناديك من يحتمل أنه يملك حمايتك من ذلك الخطر، فردًا كان أم جماعة أم دولة، فيؤويك وتنجو من الخطر، هل ستنسى له هذا الجميل ما حييت؟ بل ورب السماء والأرض ستتدفق من داخلك كلمات الشكر والعرفان والامتنان بكل إخلاص له، لمجرد أنك لذت بأمانه النسبي المؤقت وهو مخلوق مثلك لا يملك ضمان الأمان لك ولا لنفسه، فكيف إذا ناداك من يملك كل شيء على الإطلاق، وبيده أقدار ومقادير الخوف والرجاء كلها، وتحت أمره ونهيه قولًا واحدًا وحده لا شريك معه ولا ند، وإذا حكم فحكمه الحق المطلق ولا معقب لحكمه، وإذا قدر فلا رادّ لقدره، فأمانه فوق كل أمان، وضمانه فوق كل ضمان، وهو الحق، وقوله الحق، إنه والله هو الملاذ الذي لا ملاذ بعده، والأمان الذي لا أمان بعده في الوجود كله؟

لقد جاء النداء الواضح من الخالق العظيم لإرشاد الخلق إلى أن الملاذ الآمن الوحيد هو الذي جاء من رب العالمين الواحد الأحد، يأمر الإنسان التائه بالفرار من جميع الوحشات الموحشات في هذه الحياة وبعد الممات، بل ومن كل وحشة لا نعرفها من قبل ومن بعد، إلى حيث تكون الطمأنينة الدائمة، والسلامة الأبدية، ليت شعري كم قرأنا هذه الآيات من سورة الذاريات دون أن نقف عندها منصتين خاشعين فرحين بوجود مخرج آمن لنا من هذا الوجود المخيف، عندما نستجيب لنداء الله لنا بالفرار منه إليه: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥١ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٞ طَاغُونَ ۝٥٣ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ۝٥٤ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٠- ٥٦].

بهذا الإيمان الخالص والتوحيد النقي والتوجه الحاسم لله، يتحقق لنا الملاذ الآمن الذي نفر إليه من كل رعب وخوف، وبهذا الملاذ تنقلب كل وحشة في دنيانا إلى غاية في الطمأنينة ومعرفة الطريق الصحيح للنجاة والخروج من دار العناء إلى دار المقامة والقرار، يكفينا وصفها بأنها دار السلام وتحية أهلها فيها سلام، تلك هي نهاية مطاف الوجود السعيد لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ

﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ٩- ١٠].

إن تحقيق هذا الهدف الوجودي النبيل لا يكلف الإنسان شيئًا، فبالإيمان الصادق والعمل الصالح والصلاة والزكاة تحصل على ضمانات إلهية ثلاث: أن لك الأجر الأوفى منه ومن أكرم من الله تعالى بالوفاء، وأنك تأمن من كل خوف في الدنيا والآخرة وهذا هو الملاذ الذي نبحث عنه، وأنك تنعم بالسعادة التي لا تحزن معها أبدًا، هذه بشارة لك من الله سبحانه، استمع إلى وعده الصادق: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٧] بينما تبقى الوحشة الحقيقية والرعب كل الرعب في فقدان هذا النوع من الإيمان والجهل بمعرفة الطريق إلى هذا الملاذ الآمن، عافانا الله وإياكم من الضلال الذي يختم حياة الشقاء والتيه في تردٍّ إلى دركات الشقاء الأخروي أيضًا، فتكون العاقبة كما أخبرنا القرآن: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴾ [الكهف: ١٠٣- ١٠٦].

*****